SEBHA UNIVERSITY JOURNAL OF HUMAN SCIENCES VOL.21 NO. 2 2022
DOI: 10.51984/JOHS.V21I2.2291

مجلة جامعة سبها للعلوم الإنسانية
Sebha University Journal of Human Sciences

Journal homepage: https://sebhau.edu.ly/journal/index.php/johs

الملمح الدلالي في صيغة الفعل الواحد المتعدية واللازمة في القرآن الكريم: دراسة دلالية

*مريم بيدالله الحجازي[1] و محمد داؤد محمد[2]

[1]كلية التربية، قسم اللغة العربية، جامعة بنغازي، ليبيا
[2]قسم اللغة العربية، جامعة العلوم والتكنولوجيا، السودان

الملخص

تعد تعددت الآراء بين الباحثين عن الغرض الدلالي من هذا التنوّع ، وكلّ يحمل وجهة نظر من منطلقات علمية ،غير أنّ الباحثين قد أقبلا على البحث في هذا الموضوع من منطلق أنّ هذه الظاهرة بتنوعها لابدّ أن تنفرد بأسرار دلالية في النصّ القرآني ؛ذلك لأنّ النصّ القرآن لم يكن مجرد حاوٍ لاستعمالات العرب فقط ، بل وظّف كل الظواهر اللغوية توظيفا خاصّا يخدم لغة القرآن، وقد تعرّضنا في مبحثنا لهذه الظاهرة اللغوية المعروفة في لغة العرب ، وتوصلنا إلى عديد من النتائج على رأسها انفراد لغة القرآن بدلالات خاصّة ، هذه الدلالات استشعرها المفسرون أثناء تفسيرهم للآيات ومن خلال البحث في هذه الظاهرة نصل لعدة نتائج ملخصها أنّ القرآن تعامل مع ظاهرة التعدّي واللزوم تعاملا خاصّا ، حيث وظفها لإحداث دلالات ، ونقلها من مجرد ظاهرة نحوية قد تُعزى للاختلاف اللهجي إلى ظاهرة تثري النصّ القرآني وتغنيه.

الكلمات المفتاحية:

التضمين
التعدي
الدلالة
اللزوم
النصب على نزع الخافض

The semantic feature in the transitive and intransitive one-act form in the Holy Quran: a semantic study

*Maryam Bidallah Al-Hijazi[1] , Muhammad Dawood[2]

[1] College of Education, Department of Arabic Language, University of Benghazi, Libya
[2] Department of Arabic Language, University of Science and Technology, Sudan

ABSTRACT

There are many opinions among researchers about the semantic purpose of this diversity, and each carries a point of view from scientific premises, but the researchers have embarked on research on this subject from the premise that this phenomenon, with its diversity, must be unique in semantic secrets in the Qur'anic text, because the Qur'an text was not Just a container for the uses of the Arabs only, but he made all linguistic phenomena in a special way that serves the language of the Qur'an. In our study, we were exposed to this linguistic phenomenon known in the language of the Arabs, and we reached many results, foremost of which is the singling out of the language of the Qur'an with special connotations, these indications were sensed by the commentators during their interpretation of the verses.

Keywords:

Infringement
Necessity
Indication
Accusation to remove the depressor
Implication

المقدمة

قضية التعدّي واللزوم من القضايا المتعلقة بالأفعال، فالأفعال في العربية تتنوع في استعمالاتها منها ما يكتفي بمرفوعه، ومنها ما يتطلب مفعولا يقع عليه الحدث.

وقد جاء النصّ القرآني غنيّا بهذه الاستعمالات ؛ مما يسترعي انتباه الباحثين بوجود سر دلالي وراء هذا الثراء في الاستعمال القرآني.

وقد تعددت الآراء بين الباحثين عن الغرض الدلالي من هذا التنوّع ، وكلّ يحمل وجهة نظر من منطلقات علمية ،غير أنّ الباحثين قد أقبلا على البحث في هذا الموضوع من منطلق أنّ هذه الظاهرة بتنوعها لابدّ أن تنفرد بأسرار دلالية في النصّ القرآني ؛ذلك لأنّ النصّ القرآن لم يكن مجرد حاوٍ لاستعمالات العرب فقط ، بل وظّف كل الظواهر اللغوية توظيفا خاصّا يخدم لغة القرآن ويجعلها لغة مبدعة أذهلت العرب وقت نزولها ، وأذعنوا لها بالثناء رغم كفرهم بما تضمنته من عقيدة صدمت عقائدهم السائدة وقتذاك..

*Corresponding author:
E-mail addresses: M_alhegaze8@yahoo.com, (M. Dawood) elmozuro@sustech.edu
Article History : Received 11 April 2022 - Received in revised form 22 November 2022 - Accepted 24 November 2022

لم يتسنّ للباحثين الإتيان على كل الأفعال ذات الاستعمال المشترك التي ناقشها البحث للتركيز على فلسفة الاستعمال القرآني لها وسرّها الدلالي ولم يكن الغرض تتبّع هذه الأفعال في كل الاستعمال القرآني ، ليس لعدم أهمية ذلك ولكن لأنّ الأمر يتطلب وقتا أكبر وإذعانا لشروط النشر في المجلات العلمية التي تتطلّب عادة بحوثا غير موسّعة.

مشكلة البحث

تنوّع الاستعمال للفعل الواحد بين التعدّي واللزوم في لغة تتسم بالإبداع لابدّ أن يكون خلف هذا الاستعمال معانٍ خاصّة ، فما هي هذه المعاني التي المرادة من وراء هذا الاستعمال ؟

هل يمكن التسليم بأنّ هذا التنوع للأفعال ات الاستعمال المشترك من باب التوسّع في الاستعمال ، وجريا على عادات العرب في كلامهم فقط ؟

ما الفروق الدلالية للأفعال ذات الاستعمالين (المتعدّي واللازم) ؟

المبحث الأوّل (التمهيدي)

قضية التعدّي واللزوم من القضايا المتعلقة بالأفعال، فالأفعال في العربية تتنوع في استعمالاتها منها ما يكتفي بمرفوعه ومنها ما يتطلب مفعولا يقع عليه الحدث،وقد حاول النحاة البحث عن

عن تفسير نسقي لهذه الظاهرة فكانت هناك عدة تفسيرات ، كالتضمين ،والتوسع في حذف الجار، والحذف والإيصال أو النصب على نزع الخافض.

ولا نستطيع الحكم على أيٍّ من هذه التفسيرات بأنها الأنسب في إطار الاستعمال العام للغة ؛ لأنّ أيّا منها يصلح أن يكون تفسيرا لهذه الظاهر من حيث المنطق ، لكنّ الأمر نجده مختلفا عند النظر لهذه الظاهرة في الاستعمال القرآني ، فلغة القرآن لها خصوصيتها ، فهي لغة عالية ،مبدعة ، خرجت عن نسق أسلوب العرب في الكلام بل واتخذت لنفسها منحى يخرج عن المألوف ، فالقرآن كنص عربيّ – بعيدا عن قدسيته- يستعمل اللغة استعمالا خاصّا ، فعند النظر إلى مستويات الدلالة نجد أن القرآن قد سجّل خروجا عنها ، على سبيل المثال على المستوى المعجمي خصّص بعض الألفاظ بمعان حتى صارت هي الأشهر وهي المتبادرة للذهن عند ذكرها (كالصلاة والزكاة ، النفاق ، الكفر ...) فهذا معجم قرآني لم يكن موجودا بنفس الدلالة إلا بعد مجيئ القرآن ، وكذلك على المستوى الصرفي ، والنحوي أيضا (كالعطف على المجرور دون إعادة الجار وغيرها من الظواهر التي وصمت بسببها بعض القراءات بالشذوذ ، كذلك على المستوى الاستعمالي جاء القرآن ليستثمر بعض الظواهر كظاهر التعدي واللزوم التي ربما كان يرجع تفسيرها لعدة أسباب كالتوسّع في الاستعمال ، والاختلاف اللهجي بين القبائل ليصبغها بصبغة إعجازية ويخفي وراءها سرّا دلاليا لا يكشف إلاّ لمتأمل.

فاستعمال بعض الأفعال تارة متعدية وتارة أخرى لازمه في القرآن الكريم إنّما جاء للمحات دلالية ، ولا يمكن التسليم بأنها لهجات أو لغات ، فالقرآن استثمر هذه الظاهرة ليعطيها أبعادا أخرى ، فيحرر هذه الظاهرة من طوقها النحوي إلى فضاءات دلالية تُسهم في تفسير الكثير من الآيات التي وردت فيها هذه الاستعمالات.

وسنستبعد مسمي التضمين والتوسع في حذف حرف الجر؛ لأنهما مسميان يفسران عدة ظواهر أخر غير هذه الظاهرة ، ونعتمد مسمّى النصب على نزع الخافض، وتحديدا ما ينتصب على حد المفعول به ، فهو الأنسب لبحثنا.

ذكر سيبويه هذه الظاهرة في كتابه ضمن ظاهرة التوسع في حذف الجار ، فقد جاء عنوان هذه الظاهرة (حذف الجار ونصب مجروره) في أكثر من باب عنده . فلم يحفل النحاة في بداية مؤلفاتهم بوضع المصطلحات- كما هو الحال عند سيبويه- بل كانوا يستغنون بوصف الظاهرة عن تحديدها بمصطلح خاصّ بها.

وبعد أن عُرفت هذه الظاهرة بمصطلح خاصّ بها - ولم يحدث ذلك إلا في وقت متأخر من تاريخ النحو - نجد ابن هشام يعرض لذكر هذا المصطلح في أثناء حديثه عن الظرف ، فيقول:" "وخرج عن الحد ثلاثة أمور، منها: (دخلتُ الدار) و(سكنتُ البيت)، فانتصابهما إنما هو على التوسع بإسقاط الخافض، لا على الظرفية، فإنه لا يطرد تعدي الأفعال إلى الدار والبيت على (في) لا تقول: "صليت الدار" ولا "نمت البيت". وأحياناً يطلق علي هذه الظاهرة حذف الجار" (ابن هشام ،1975: 2/ 236) . وقد عرفها النحاة بقولهم: "الاسم المنصوب بفعل حقه أن يتعدى بالحرف، لكنه حذف عند تعينه استغناء عنه سماعا أو قياسا " (الأهدل ، ابن عبدالباري،1990: 2/358)

وبالمجمل فإنّ معنى نزع الخافض يقصد به حذف الخافض من الجملة والخافض هو عامل الخفض وهو إما حرف الجر أو الاسم المضاف على المختار من أقوال النحويين في عامل الجر في المضاف إليه ، وهو مذهب سيبويه والأكثرين.

(سيبويه،عمرو بن بشر،1988: 1/ 419) ، (سيبويه : 419/1 ،(ابن الحاجب، 1982 : 400/1) ، (ابن مالك، جمال الدين : 67/2) (السيوطي ، جلال الدين 1998 : 421/2)

افترقت المدرستان البصرية والكوفية في تحديد عامل النصب ، فذهب البصريون إلى أنّه منصوب بالفعل قبله دون اعتبار لحرف الجر المحذوف ، بينما يرى الكوفيون بأنه منصوب بنزع حرف الجر.(ابن هشام ،1979 :838))

وقد فرق بحثنا بين الأفعال التي أتت متعدية تارة ولازمة تارة أخرى و بين أن يكون الفعل بذات الصيغة مشترك الاستعمال ، وبين أن يكون الفعلان (مشترِكِين في الجذر ويختلفان في الزيادة والتجرّد ، على سبيل المثال الفعلين (لحق وألحق) ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف،101) ، ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ (آل عمران،170)، وكالفعلين (كلم وتكلّم)،

﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (يوسف،54) وقوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ﴾ (النور ،16)، فهذا مما لا يدخل في مجال بحثنا لأن هناك اختلافا بين التجرد والزيادة في الأفعال من حيث الدلالة والاستعمال.

وكذلك أيضا مما لا يدخل في مجال بحثنا تلك الأفعال التي حذف منها المفعول وظل معناه قائما في النفس إذ لا يتم المعنى إلا بتقديره مثل: (أمات،

أحيا، أعطى أضحك، أبكى) ، وإنما جاء الحذف لغرض بلاغي يعرفه المختصون ،

وقد حاولنا دراسة بعض الأفعال ذات الاستعمال المشترك ، والمقابلة بين الاستعمالين وتحليل المعنى في ضوء سياق كل استعمال .

المبحث الثاني (التطبيقي)(

سنحاول في هذا المبحث عرض بعض النماذج من الأفعال ذات الاستعمال المشترك في النص القرآني ، ونظرا لصعوبة حصرها فقد اكتفينا بأربعة أفعال ارتأينا أنّها ستعطي صورة واضحة عن بلاغة النص القرآني في توظيفه لها.

أولا : الفعل (مكّن) على صيغة فعّل

وردت هذه الصيغة متعدية تارة ولازمة تارة أخرى في النص القرآني

قال أبو عبيدة تأتي متعدية ولازمة نقول: مكَّنَّاهم ومكَّنَّاهم لهم: لغتان فصيحتان نحو: نَصَحْتُه ونَصَحْتُ له (تفسير الدر المصون،ج537/4)(

المواضع التي ورد الفعل فيها متعديًا

قوله تعالى :﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ (الأنعام،6)(

قال تعالى : ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (الحج،41(

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ (الأحقاف،26)

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف ،10)

المواضع التي ورد فيها لازما

كقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ (يوسف،21)(

وقوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ (يوسف،56)

وفي قوله تعالى :﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾

وفي قوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ القصص،57)(

ذكر صاحب الفروق ، الفرق بين الاستعمالين "لمكّن" (متعديا ولازما) فقال: "فجاء باللغتين للتوسع في الكلام، والصحيح أنّ مكنت له جعلت له ما يتمكّن به ومكّنته أقدرته على ملك الشيء في المكان" (العسكري ،أبو هلال : 1412هـ: ج1 / 479).

أي أنه لا يراهما بنفس المعنى في الاستعمال القرآني ،فمن خلال استعراض الآيات نستشعر الفرق بين الاستعمالين في الفعل (مكّن) متعديا ولازما ، يرى الباحثان أنّ استعماله متعديا يعطينا معنى الإطلاق في هذا التمكين فاستعمال الفعل (مكناهم ، مكناكم) يعطي معنى أنّ هذا التمكين مطلقا ليس محددا ولا مقيدا بمكان ، وهذا يتماشى مع المعنى العام للآيات التي ورد فيها هذا الفعل متعديا ، فهو يتحدّث عن أقوام سابقة وقرون خلت ، وقد سكنت هذه الأقوام في بقاع كثيرة جدا وأتت عليها ، فكأنّ تمكينهم لم يكن محددا بمكان خاص، بينما ورد الفعل (مكّن)

لازما ، كقوله عن سيدنا يوسف (مكنا ليوسف) في أكثر من موضع ، وكذلك ذو القرنين (مكنا له في الأرض) فيعطينا معنى أنّ هذا التمكين ليس مطلقا في كل الأرض ، بل هو تمكين في مكان محدد من الأرض ؛ لذا عندما خرج هذا الفعل عن استعماله المألوف جيء باللام لعرقلة الفعل وإشعاره بالقصور فكانت هذه اللام التي جاءت مقيدة في معرض ذكر النعم، فهي لام تفيد الاستحقاق ،ويعزز ذلك مقابلة الاستعمالين

في الآية نفسها في قوله تعالى::

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ (الأنعام،6)

يقول صاحب الكشاف : " والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عاداً وثمود وغيرهم، من البسطة في الأجسام، والسعة في الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا" (الزمخشري ،جار الله ، 1407: ج6/2) فالحديث هنا عن أقوام غير محددة سكنت الأرض لذا جاء التمكين هنا مطلقا فعبر عنه بالفعل متعديا ، وقابله بالفعل نفسه لازما (مالم نمكن لكم) فالحديث هنا موجّه لأهل مكة كما ذكر في تفسير هذه الآية ، ومن المعلوم أنّ لهم مكانا محددا من الأرض وليس كل الأرض ، فجاء الفعل هنا لازما لبيان أن التمكين لهم كان محددا مقيدا بمكان معيّن.

ثانيا:(الحقل الدلالي لأفعال السماع)

أ. الفعل : سَمِع على صيغة فَعَلَ

جاء متعديا في مواضع هي

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة،83)

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ (الفرقان،12(

وقوله : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ (القصص،55)

وقوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ (فاطر،14)

: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ (الملك،7(

: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (القلم،51)(

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(البقرة،75)(

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾(الأنبياء،102)

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾(آل عمران،181)

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة،1)

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ ﴾ (الجن ،13)

ورود الفعل لازما أ.

)متعديا باللام(

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ (المنافقون،4(

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت،26(

روي أن قائل هذه المقالة أبو جهل عمرو بن هشام، وَالْغَوْا فِيهِ، المعنى: لا تسمعوا إليه، وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات وإنشاد الشعر، وشبه ذلك حتى لا يسمعه أحد (ابن جزي، 1416هـ:ج240/2)

وجاء متعديا بالباء في قوله تعالى:

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ المؤمنون،24) ، وقوله تعالى :(

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾(ص،7)

ونلحظ في الآيات التي جاء فيها الفعل (سمع) متعديّا لم نجد في كلام

المفسرين حديثا عن هذا الفعل وسر تعدّيه ، ومما يلحظ أنهم تعاملوا معه على أنّه الأصل في الاستعمال ، وأن اللزوم هو بمثابة الخروج عن الأصل، ومن هنا يمكننا أن نعدّ الأصل

في الفعل (سمع) هو التعدّي في القرآن بناء على كثرة الاستعمال ، ودلالته حال التعدّي تعني مجرد استقبال الصوت دون تخصيص للتأثر بالمسموع ، فـ(سمع) المتعدّي هو بلوغ الصوت أذن السامع ،أي مجرد استقبال الصوت ، كذلك أنّ السماع هنا ليس بالضرورة أن يكون مقصودا ، فقد يسمع الإنسان أصواتا دون يعمد إلى سماعها لمجرد بلوغ الصوت أذن السماع، ولكنّه إذا أراد التفاعل مع هذا المسموع والتوقّف عنده فإنه يستعمل (سمع) لازما للدلالة على أنّ هذا المسموع قد أخذ من السامع مأخذا ، وخالط نفسه شيء من هذا المسموع نستشعر هذا في قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ (المنافقون،4) ، في حديثه عن المنافقين.

ومما جاء في سبب نزول هذه الآية

قال صاحب البحر " ضمّن (تسمع) معنى (تُصغي) و (تميل) فعُدِّي باللام" (أبو حيان ، 272/7)(

وفي تفسير البيضاوي أيضا يستشعر هذه الخصوصية للفعل (سمع) المُعدّى باللام فيضمنها معنى فعل آخر فيقول " وكان ابن أبيّ جسيما فصيحاً يحضر مجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلم في جمع مثله، فيعجب بهيكلهم ويُصغي إلى كلامهم" البيضاوي، 1418 :5/ 214)(

كذلك جاء في تفسير أبي السعود :" وكانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ومنْ معه يعجبون بها كلهم ويسمعونَ إلى كلامِهم"(أبو السعود 8/ 252) ، وعلى هذا جُلّ المفسرين.

ومن خلال ما ورد في التفسير نستشعر خصوصية الاستعمال في هذا الفعل فأغلبهم يضمنه معنى الإنصات ، وفي حقيقة الحال لو كانا بالمعنى نفسه لما عدل القرآن عن الفعل أنصت إلى سمع ، ولو جئنا للفعل (أنصت في القرآن) لوجدنا له معنى أدقّ ، حيث استعمل في تعمّد السماع والتركيز في المسموع ، فقد ورد في القرآن في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾. (الأحقاف،29)(

وفي قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف، 204)

ولو توقفنا قليلا أمام الفعل (أنصت) من خلال استعماله في القرآن لوجدناه امتدادا للفعل (استمع) المزيد بالتاء المفيدة هنا للطلب وأيضا للمبالغة والتكلّف ، فاستمع هنا غير سمع التي - كما ذكرنا – لا تفيد تعمّد السماع ، بدليل أنّ الجنّ في الآية قد جاء متعمدا سماع القرآن لذا استعمل الفعل (استمع) لبيان هذه القصدية في السماع والتعمّد ، كذلك عند الحثّ على سماع القرآن استُعمل (استمع) المزيد بحرف لبيان هذا التعمد وهذه القصدية من الفعل .

واقتران الفعل (أنصت) بالفعل استمع ، حيث جاء مواليا له في نفس الآيات يوحي بخصوصية هذا الفعل فكأنه أكثر دقة من الاستماع ، فالاستماع -كما ذكرنا -متعمد مقصود ، كذلك الإنصات ، غير أنّ الإنصات يفارقه في التهيؤ والاستعداد بقطع السمع عن الشواغل والتركيز في المسموع ؛ بإرهاف السمع وصرف الذهن والسمع عما سواه.

فكأنّ الفعل (أنصت) يرسم صورة الحدث بشكل أدقّ ، لذا جاء استعماله في القرآن يلي الفعل (استمع) فكأنه مرحلة ما بعد القصدية في الاستماع أي التركيز في المسموع وصرف الحواس إليه..

فاستمع وأنصت من حيث الدلالة مختلفان عن الفعل (سمع) ، فـ(سمع) المتعدي هو السماع في صورته العامة أي بلوغ الصوت أذن السامع ، والاستماع هو طلب السماع والتكلف فيه ، والإنصات هو التركيز في المسموع مع قطع الملهيات عنه من كلام وغيره.

أما سمع اللازم فمختلف عما سبق من الأفعال من ذات الحقل الدلالي من حيث الدلالة ،إذ تتوفر فيه عدم القصدية والتعمّد المسبق ،لكنّ هذا المسموع يثير السامع فيجد نفسه متفاعلا مع ما سمع ؛ حيث يقع المسموع من نفس السامع موقعا خاصّا، ويلفت انتباهه ويثير اهتمامه.

ومما يزيد التأكيد على ما ذكرنا في إفادة عدم القصدية في السماع هو استعماله في موقعين كلاهما يظهر السياق فيه انعدام القصدية من هذا الفعل ، الآية التي ذكرناها: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾)لمنافقون،4) أسلوب الشرط هنا يعطي معنى أن هذا السماع حاصل حال قولهم ، دون عمد لهذا السماع.

ومما يدلّ على ذلك أيضا ويعززه قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت، 26) ، حيث جاء في جُلّ التفاسير أنّ المعنى هو أنّه أمرهم بالتشاغل بالإنشاد والغناء عند سماع القرآن كي لا يسمعوا ، فالنهي هنا جاء بعدم التأثر بالقرآن بدليل قوله (لا تسمعوا لهذا القرآن) ولم يقل لا تسمعوا هذا القرآن ، فمجرد السماع لا يعني التأثّر ، لكن الخشية تكون من السماع والتأثر ، ودليل عدم القصدية هنا هو تفسيرها بأمرهم بالتشاغل عنه بالحديث والإنشاد كي لا يسمعونه .

إذا : استعمال سمع متعديا في القرآن مختلف عن استعماله لازما ،حيث نجد فروقا دلالية في الاستعمالين من خلال عرضنا للآيات التي ورد فيها الفعلان ، ومن خلال الاستعمال يمكننا عدّ الفعل (سمع) في الأصل متعديا وعدّ الفعل (سمع لـ) متعديا بالحرف فرع عنه وكأنّ هذا الفعل خرج عن استعماله العادي ليؤدي معنى خاصّا لن يتحقّق بالفعل المتعدي ، وكأنّ وجود اللام مع (سمع) فيه شيئ من عرقلة الفعل وجعله قاصرا؛ كي يعطينا معنى أنّ هذا الفعل لا يحدث بالسهولة التي يحدث به (سمع) متعديا، وأنّ به خصوصية تختلف عن المتعدي وهو مخالطة هذا المسموع للنفس بشكل ما، ولو كان مجرد الإعجاب به أو إعارته اهتماما.

أمّا سمع المتعدي بالباء: فهو يعني أنّ هذا المسموع لم يقع على أذن السامع مباشرة بل هو منقول عن سامع آخر ، فقولنا سمعت بالشيء ،أي سمعته منقولا عن سامع ،وكأنّ هذه الباء التي لها عدة معانٍ دلالية ، قد انتخبت أحد هذه المعاني وهو الإلصاق وكأنّ هذا المسموع قد لامس أذن السامع . ولم ترد إلاّ في آيات ثلاثة﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾(المؤمنون ،24)

﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (القصص،36(

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾(ص،7).(

فالمسموع هنا لم يقع على أذن السامع من مصدره مباشرة ؛ بل وصله بشكل غير مباشر من وسيط ، فالفعل هنا لم يصل لمسموعه بشكل مباشر فكأن الفعل أعيق عن الوصول إلى مفعوله مباشرة فجيء بالباء ليسجّل بذلك هذا الفعل خروجا عن الاستعمال الاعتيادي لهذه اللمحة الدلالية

ب.الفعل استمع على صيغة افتعل

تعرضنا لهذا الفعل بصفة عامة في المطلب السابق، ولكنّ لم نتعرّض للفعل استمع من حيث مجيئه متعديا ولازما في القرآن.

أولا :الفعل (استمع) متعديّا

قال تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنبياء،2)

جاء في تفسيرها :أي لا يَسْتَمِعُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ وَصَفَ صِفَتَهُمْ هَذَا الْقُرْآنُ إِلَّا وَهُمْ يَلْعَبُونَ , غَافِلَةً عَنْهُ قُلُوبُهُمْ، لَا يَتَدَبَّرُونَ حُكْمَهُ , وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِيمَا أَوْدَعَهُ اللَّهُ مِنَ الْحُجَجِ عَلَيْهِمْ .(الطبري،2001 :16/ 222.(

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر،1)

أي الذين يستمعون للحديث فيتبعون أحكمه وأبينه . (ابن عباس ،ج1/ 387)(

وقيل: "يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. وقيل: يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها، نحو القصاص والعفو، والانتصار والإغضاء، والإبداء والإخفاء " (الزمخشري،1407هـ: 4/ 120. (

وهكذا تراوحت الآراء في تفسير استماع القول بين الخاص والعام ، فمن قائل أن الاستماع هنا ليس مخصوصا بشيء معين ، بل هو سماع لكل شيء ، وهو هنا كأنّه يسوّي بين سمع واستمع ، ومن قائل بأنّ المقصود هنا استماع القرآن خاصّة ، وهو قول الزمخشري ومن تبعه من المفسرين ، ونميل لهذا الرأي إذ إنّ استعمال الفعل (استمع) المزيد دون (سمع) يرجّح هذا التفسير ، فالاستماع كما قلنا هو فعل فيه قصدية وتعمّد.

ومما يؤكّد على أنّ السماع هنا مقصود هو أنّه محصور في القول الحسن بدليل صيغة التفضيل هنا (أحسنه(

- ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ (الأحقاف،29(

هذه هي الآيات التي ورد فيها استعمال الفعل (استمع) متعديا ، ومن خلال سياق معاني الآيات نستشعر كما ذكرنا آنفا تلك القصدية والتعمّد في السماع ، فقد جاء في تفسيرها ،"أَيْ: وَجَّهْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ وَبَعَثْنَاهُمْ إِلَيْكَ" مما يؤكد لنا قصدية الفعل . وهذه القصدية والتعمّد جاءت من بناء الفعل الذي جاء مزيدا بالتاء الدالة على التكلف.

ثانيا: الفعل (استمع) لازما

الآيات التي ورد فيها هذا الفعل لازما

ورد (استمع) متعدّيا بحروف جر ، وتنوعت حروف الجر معه فلم يلتزم حرفا بعينه، فلم يلزم اللام كالمشتق منه (سمع) وذلك لتنويع المعنى وإضفاء دلالات خاصّة

قال تعالى:

- ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (الإسراء47،)

جاء في تفسيرها : " وَالْبَاءُ فِي يَسْتَمِعُونَ بِهِ لِلْمُلَابَسَةِ. وَالضَّمِيرُ الْمَجْرُورُ بِالْبَاءِ عَائِدٌ إِلَى (مَا) الْمَوْصُولَةِ، أَيْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِالشَّيْءِ الَّذِي يُلَابِسُهُمْ حِينَ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ، وَهِيَ ظَرْفٌ مُسْتَقر فِي مَوضِع الْحَال. وَالتَّقْدِير: متلبسين بِهِ" ابن عاشور ،1984: 15/ 119.

والباء هنا ليست ملازمة للفعل سمع ، بل هي باء مع مجرورها يمكن أن تضامّ أي فعل لتعطي معنى الحالية ، على سبيل المثال نقول فلان يكتب بحماس ، ويجري بقوة ، ويقرأ بشغف.

فلا تُعدّ هذه الباء من معديات الفعل استمع

- ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ الطور،38(

- يستمعون فيه : منهم من جعلها من باب تناوب الحروف ، فالأصل أن السلم يكون عليه الإنسان وليس فيه ، وقد جاء فيها : "وقال أهل اللغة: - معنى يستمعون فيه، يستمعون عليه ومثله: ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي على جذوع النخل" (معاني القرآن وإعرابه للزجاج ،ج5/ 66)

ولعلّ التفسير أنه لمكوثهم عليهم لا يتجاوزونه فكأنهم مقيمين فيه ، قال صاحب التحرير :" فَيَسْتَمِعُونَ وَهُمْ فِيهِ، أَيْ فِي دَرَجَاتِهِ الْكَلَامَ الَّذِي يَجْرِي فِي السَّمَاءِ. وفِيهِ ظَرْفٌ مُسْتَقِرٌّ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ يَسْتَمِعُونَ، أَيْ وَهُمْ كَائِنُونَ فِيهِ لَا يُفَارِقُونَهُ إِذْ لَا يُفْرَضُ أَنَّهُمْ يَنْزِلُونَ مِنْهُ إِلَى سَاحَاتِ السَّمَاءِ" (ابن عاشور ، 72/27)

فالظرفية بهذا المعنى ظرفية مقصودة ولا تناوب في الحروف كما يرى الباحثان.

- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾(الأنعام،25(

- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾(محمد،16)

- ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ الجن،9)(

ومما نلحظه أن تعدية الفعل (استمع) بـ(إلى) يعطي معنى: أنّ هذا الحدث لم يقع على المفعول مباشرة بل إلى ماله علاقة بالمفعول ، فالمُستَمع إليه في الآيات ليس القول أو الكلام بل ممن له علاقة بالقول ، أي مصدر المسموع :أي الشخص الذي صدر عنه الكلام أو القول ، وعليه لا يمكننا القول هنا أنّ الفعل قد تعدّى إلى مفعوله بحرف الجر ؛إذ لو كان هذا صحيحا لانتصب الفعل بعد حذف الجر على المفعولية ، فلو حذفنا حرف الجر (إلى) وقلنا يستمعونك لما أعطى معنى سليما مستساغا، وهذا ما نلحظه عند تعدّي الفعل تعديا مباشرا ، كما جاء في آيات هذا الفعل متعديا ،(يستمعون القول ، يستمعون القرآن) فالتعدي هنا تعدٍّ مباشر للمفعول ، فالقول والكلام والذكر ، كلها من المسموعات.

ولعل هذا هو سرّ مجيء الفعل استمع متعديا أحيانا ، ولازما أحيانا أُخر ، فهو إذا وقع على مفعوله مباشرة يأتي متعديا ، وإذا لم يقع على مفعوله مباشرة بل وقع على ماله علاقة بالمفعول (المتكلم) فيأتي لازما.

وتأسيسا على ما سبق يمكننا ألاّ نعدّ استمع التي تنصب مفعولا مباشرا ، واستمع المتعدية بإلى من باب الأفعال ذات الاستعمال المشترك ؛ لعدم انتصاب ما بعد حرف الجر مفعولا حال حذفه.

ثالثا : الفعل (ضلّ) على صيغة فَعَل

جاء هذا الفعل متعديا تارة ولازما تارة أخرى في الاستعمال القرآني ، وقد تقارب عدد استعمالاته متعديا ولازما في القرآن.

الفعل ضلّ متعديا : قال تعالى

- ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(البقرة،108).(

- ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(المائدة ،112)

- ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ

بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ﴾(الممتحنة ،1).

من المعلوم أنّ الكافرين الموجه إليهم الخطاب في القرآن صنفان : المشركون وأهل الكتاب

)ينظر : الزمخشري، ج1 /175)، وهما يختلفان في المرجعية الثقافية فيما يخصّ الخطاب الموجه ، فنجد أهل الكتاب يُخاطَبون في القرآن خطاب الجاحد العارف بالحقيقة ،بينما يُخاطَب المشركون الذين لا يمتلكون هذه المعرفة خطابا الجاهل المتّبع هواه.

حيث أتى الفعل (ضلّ) في خطاب الفئة الأولى متعديّا ، وكأنه يشعرنا بقوة ضلالهم لأنهم على علم ومع ذلك حادوا عن طريق الاستقامة. وهؤلاء ضلالهم أشدّ وأبين.

*قال تعالى :﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(البقرة،108(

الخطاب هنا موجه للمسلمين الذي كانوا مع الرسول (ينظر : الزمخشري، ج1 /175)

، ومعلوم أنّ من عرف الحقيقة وأدركها ليس كمن لم يعرف، وعليه فالمبدّل لها ومن ينكص من الإيمان إلى الكفر يكون ضلاله أشدّ وأبين ممن لم يدرك ويعرف ،قال صاحب التحرير :" الْمُرَادَ مِنَ الضَّلَالِ أَعْظَمُهُ وَهُوَ الْحَاصِلُ عَقِبَ تَبَدُّلِ الْكُفْرِ بِالْإِيمَانِ" (ابن عاشور ،ج1/ 667).

لذلك جاء الفعل(ضلّ) في هذا السياق متعدّيا ليعطي دلالة شدة ضلال هؤلاء وكفرهم ،بينما جاء الفعل ضلّ

للمخاطبين (المشركين) الذين ضلوا بسبب جهلهم وتمسكهم بموروثهم الثقافي المعتقد لظنّهم أنّهم على حقّ ، فهم لم يدركوا الحقيقة ، ولم يعطوا أنفسهم الفرصة للتفكير فيها

* - قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(المائدة ،112) أخذ عليهم ميثاقا وعهودا بأنهم إذا ما ائتمروا بأوامره سيدخلهم الجنة ، العهد والميثاق المؤكد بالأيمان والالتزامات، المقرون بالترغيب بذكر ثوابه. (فقد ضل سواء السبيل) : أي: عن عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه الضالون من حرمان الثواب، وحصول العقاب.(السعدي ج1/225)

وفي تفسير الكشاف : " فإن قلت: من كفر قبل ذلك أيضا فقد ضلّ سواء السبيل. قلت: أجل، ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم، لأنّ الكفر إنما عظم قبحه لعظم النعمة المكفورة " الزمخشري،ج1/416)(

وفي تفسير البيضاوي عن نوع ضلالهم في هذه الآية "فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ ضلالاً لا شبهة فيه ولا عذر معه بخلاف من كفر قبل ذلك، إذ قد يمكن أن يكون له شبهة ويتوهم له معذرة" البيضاوي ،ج2 /118)(

ولأنّ ضلالهم عن علم كان ضلالهم أشدّ وأبين ، فاستعمل الفعل (ضلّ) في هذا المقام متعديا ليعطينا دلالة بأنّ ضلالهم لم يكن كغيرهم عن جهل واتباع هوى، فكأنّ قوة الفعل في الوصول إلى مفعوله يعكس لنا شدة هذا الضلال وقوت

- قال تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ﴾(الممتحنة،1)

تتفق التفاسير على أنّ الآية نزلت في رجل من المسلمين اسمه حاطب بن بلتعة كان يُعلِم الكفار بغزو الرسول صلّى الله عليه وسلّم لهم، وقد نهى الله عز وجلّ عن موالاة الكافرين ، وبعد أنّ بيّن حكم موالاتهم جاء الفعل (ضلّ) في سياق النهي ، فنُزّل من يفعل لك منزلة العالم بالحكم ، لذا جاء متعديّا ، ففعل هذا الأمر بعد النهي والتنبيه عليه هو ضلال بيّن وشديد .

الفعل (ضلّ) لازما

قال تعالى :

- ﴿رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل ،125)

- ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾(النجم،30(

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(القلم،7(

جاء في تفسير (آية النجم ،30) : ليس لهم علم إلا هذا الكفر بالله، والشرك به على وجه الظنّ بغير يقين علم.(الطبري،ج22/ 530.(

فالضلال هنا إذًا هو ضلال عن غير علم ، فهو ضلال المتبع لهواه الظانّ أنّه على حق وهو على غير ذلك؛ لذا جاء استعمال الفعل (ضلّ) هنا لازما، وكأنّ قصور هذا الفعل في الوصول إلى مفعوله يخفّف شدة هذا الضلال وقوته ذلك أنّ ضلالهم أخفّ من أولئك الضالين عن علم ومعرفة

- قال تعالى : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾(ص،26)

الخطاب هنا لنبي الله داوود بعد أن حكى قصة الخصمين الذين تسورا المحراب ، وكيف حكم في أمرهما، وتنبه بعد ذلك أنّ هذه القصة هي تنبيه له أن يحكم بالعدل لا ما تهواه نفسه القرطبي ،178/15)(

وَالْهَوَى: كِنَايَةٌ عَنِ الْبَاطِلِ وَالْجَوْرِ وَالظُّلْمِ لِمَا هُوَ مُتَعَارَفٌ مِنَ الْمُلَازَمَةِ بَيْنَ هَذِهِ الْأُمُورِ وَبَيْنَ هَوَى النُّفُوسِ (ابن عاشور ، ج23/ 242)

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص، 26)

هنا يأتي الفعل (ضلّ) لازما ذلك لأنّ الضلال هنا كان عن غير علم ، وكأنّ استعمال الفعل لازما لا يتعدى إلا بحرف جرّ يخفّف من قوته، فالفعل هنا عُرقل عن وصوله إلى مفعوله فجيء بحرف الجر ليوصله إلى مفعوله.

نلحظ مما سبق أن تعدّي الفعل يوحي بقوة هذا في الحدوث ، فكأنّه لقوته وصل لمفعوله دون حواجز دلالة على شدة الضلال ، وعندما يأتي (ضلّ) متعديا بحرف جرٍّ أي قاصرا عن الوصول لمفعوله يعطينا دلالة إيحائية بعجز وقصور الفاعل في إحداث الفعل ،إما لأنّ هذا الفعل قد خرج عن استعماله المعتاد ، أو لدلالة خاصة في معناه ، ويمكننا أن ندلّل على ذلك من القرآن عندما ينزّل القرآن الفعل المتعدي منزلة اللازم ،

الآيات : كما في

- ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾(الحج،15) وقوله: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾(مريم،25) ، وقوله:﴿ وَأَنْفِقُوا

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا﴾ البقرة،195)(

فمن المعلوم أنّ هذه الأفعال متعديّة ولم ترد لازمة لا في القرآن ولا في اللغة إلا في هذه المواضع . وعندما نتأمل في سياق هذا الأفعال نجدها جميعا تشترك في قصور الفاعل فيها عن بلوغ المفعول ، فمدّ هنا جاءت في معرض تحدٍ للكفار ، فكأنه نزل المتعدي منزلة القاصر ليشعرهم بمدى عجزهم عن القيام بهذا الفعل ،وكذلك الفعل (هزّ)

الذي جاء قاصرا ليشعرنا بقصور السيدة مريم عن الهز حيث كانت في حالة صحية غير طبيعية تمنعها من إحداث الفعل بسهولة ، وكذلك (ألقى) نزّل منزلة اللازم ليعطينا معنى أنّ هذا الفعل لا يمكن أن يحدث بسهولة ، فلا يوجد إنسان عاقل يلقي بنفسه للتهلكة بشكل مباشر ، لكنه قد يفعل أفعالا تؤدي به للهلاك(الحجازي، رسالة ماجستير :2001 ،111)،

رابعا : الفعل هدى على صيغة فَعَل

ورد الفعل هدى في جُلّ أحواله لازما متعديّا بحرف الجر إلى

قال تعالى : ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ البقرة ،213)(

هذا هو الاستعمال الغالب للفعل ، غير أنّه يحيد عن هذا الاستعمال ليوصله بمفعوله في مواضع خاصة ، فنجده متعديّا في سياق المنّ والدعاء

- قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الصافات118،117،116،115،114)(

- قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَ لَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾(المائدة ،66 ،67، 68)(

- قال تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾(النساء،175)

قال تعالى : ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾(مريم،43)

- قال تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾(الفتح ،2)

- قال تعالى : ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾(الفتح ،20)

- قال تعالى :﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(العنكبوت،69)

نلحظ أنّ الفعل هنا جاء متعديّا خلاف الاستعمال الغالب له في لغة القرآن ، ومما يسترعي الانتباه أنّ السياق الذي جاء فيه هذا الاستعمال هو إمّا سياق دعاء (اهدنا الصراط المستقيم) ،أو في سياق المنّ وذكر النعم والوعد ، كما ذكر عن موسى وهارون (ولقد مننا على موسى وهارون ....وهديناهما الصراط المستقيم) وكذا في سورة الفتح (يهديك صراطا مستقيما) ، ﴿ فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم صراطا مستقيما﴾ .

وأغلب الاستعمالات لهذا الفعل كانت بحرف الجر ، على سبيل المثال في مثل قوله تعالى :

- ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النور،46)(

- ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام ،161)

- ﴿ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَاوَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى ،52)

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾(النحل ،120 – 121)

وهكذا في جلّ نصوص القرآن الكريم ،لايأتي فعل الهداية إلا معدّى بحرف الجر (إلى. (

ويمكننا أن نستنتج من تتبع هذا الفعل في القرآن إلى نتيجة مفادها أنّ فعل الهداية لا يتأتّي إلاّ بعد مجاهدة وإدامة تفكير ؛لأنّ حدث الهداية ليس من الأحداث اللحظية التي لا تقبل تدرجا في الزمن ،وأيضا ليس من الأفعال التي لها بداية محددة فلا يذكر إلاّ عند تمامه ، فلا يمكننا مثلا القول : بدأ يهتدي أو أي فعل من أفعال الشروع معه ، لكنه فعل قلبي يتأتّى بعد خبرة تراكمية من القناعات حتى يتكامل في قلب الإنسان؛ لذا كان الأنسب في القرآن استعماله قاصرا إشعارا بتلك المجاهدة والتأمل وإلا لما كان هناك تفاضل بين المؤمن وغيره.

، ومن المعلوم أنّ أبا الأنبياء سيدنا إبراهيم قد أطال النظر والتأمل في البحث عن خالق لهذا الكون ، كما جاء في القرآن (قال هذا ربي ..) فاهتدى بعد طول نظر وتأمل وبحث عن الله ، وهذا شأن كل الأنبياء ، لذا جاء فعل الهداية قاصرا عن بلوغ مفعوله ؛ بينما جاء في سياقات الدعاء والمنّ وذكر النعم متعديّا ، فكأنّ هذا المهدي للصراط قد أنعم الله بالهداية دون كثير مشقّة منة من الله وفضلا. فجاء الفعل هنا متعديّا لمفعوله ليوحي بقوة هذه الهداية وأنّها حصلت دون عناء.

الخاتمة

ومن كل ما سبق نخلص إلى نتيجة مفادها:

-أنّ الأفعال التي وردت في السياق القرآني متعدية أحيانا ، ولازمة أحيانا أخر ، لا يمكن أن تكون من نفس الباب ؛ ذلك أنّ السياق الذي ورد فيه الاستعمال ليس موحدا ، ف(سمعه) مثلا غير (سمع منه)، فلكل واحد منهما مجاله في تأدية المعنى دون الآخر كما أشرنا في ثنايا البحث.

-أنّ المفاهيم النحوية وإن استعملت بحدودها ونطاقها النحوي ؛إلاّ أنّها تعكس في جوهرها دلالات أعمق ، فكأنها تتحرر من طوقها النحوي في شكل معانٍ لغوية لها أبعادها الدلالية.

-أنّ القرآن تعامل مع ظاهرة التعدّي واللزوم تعاملا خاصّا ، حيث وظفها لإحداث دلالات ، ونقلها من مجرد ظاهرة نحوية قد تُعزى للاختلاف اللهجي إلى ظاهرة تثري النصّ القرآني وتغنيه ؛ ومن هنا نؤمن بأنّ النصّ القرآني لم يكن مجرد حاوي للغة العرب وما فيها من ظواهر لغوية ونحوية ، بل أعاد نسج هذه اللغة على طريقة خاصّة لا تنكشف إلا لمتأمل ، فدارس لغة القرآن لا يكفي أن يكون نحويا ليصل إلى ما في لغته من نُكت وأسرار بلاغية ، بل عليه أن يأخذ بجميع فنون اللغة.

ففي مفهوم التعدّي قوة لهذا المعدّى وفي مفهوم اللزوم والقصور قصورا في هذا الفعل القاصر ، فتجاوزت هذه المعاني المفهوم النحوي لتلقي بظلالها الدلالية على استعمال هذه الأفعال لتعطي بعدا دلاليا أعمق.

-يوصي البحث الباحثين بإعادة النظر في جميع الظواهر اللغوية في ضوء الاستعمال القرآني ؛ذلك لأنّ النصّ القرآن قد أعاد توظيف هذه الظواهر في أسلوب بلاغي بديع استحقّ بها أنّ تكون لغته معجزة للعرب؛ ليحقّق بذلك الغاية من نزوله بوصفه خطابا يحمل الدعوة إلى المثل والعقيدة الصحيحة ويبتغي النفاذ إلى القلوب والأسماع.

قائمة المراجع

[1]- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

[2]- الأهدل، ابن عبد الباري (1990)، شرح الكواكب الدرية ، ت:عبد الله الشعبي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

[3]- ابن الحاجب : أبو عمرو ، عثمان بن عمر الإيضاح في شرح المفصل (1982) ، تحقيق : موسى بناي العكيلي ، بغداد ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، إحياء التراث الإسلامي ، ط1.

[4]- ابن مالك : محمد بن عبدالله ،شرح الكافية الشافية . ، تحقيق : عبد المنعم أحمد هريدي ، مكة المكرمة ، جامعة أم القرى ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي.

[5]- ابن مالك ،جمال الدين (1974)،أوضح المسالك إلى ألفية ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة، ط .6.

[6]- ابن هشام (1979 م)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار) . الفكر، بيروت.

[7]- أبو حيّان ، محمد بن يوسف (1420)، البحر المحيط ، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر ، بيروت.

[8]- أبو السعود ، محمد بن مصطفى ،إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

[9]- البيضاوي (1418ه) ، ناصر الدين ،أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد مرعشلي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

[10]- الحجازي ،مريم بيدالله ،علاقة الدلالة بعوامل الإعراب ،رسالة ماجستير،جامعة بنغازي ،2001.

[11]- السيوطي: جلال الدين ،عبد الرحمن بن أبي بكر ،همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (1998) تحقيق : أحمد شمس الدين ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط.1 .

[12]- سيبويه : أبو بشر ، عمرو بن عثمان بن قنبر ،كتاب سيبويه ، 1998)) ، تحقيق : عبد السلام هارون ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ط3.

[13]- الزمخشري ، جار الله(1407ه) ،الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي ،ط.3، بيروت.